حيوانات وردت في آيات

(٧)

نَاقَة صَالح

أحمد سويلم

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان

ناقة صالح. -ط٢. - الرياض، ١٤٢٧هـ

٢٤ ص ؛ ١٧×٢٢سم

ردمك: ٨-٩٣٦-٤٠-٩٩٦٠

١-قصص القرآن. ٢- قصص الأطفال. أ - العنوان

ديوي ٢٢٩,٥ ١٤٢٧/٨٧٢

ردمك: ٨-٩٣٦-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٢٧/٨٧٢

الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمـــز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿...هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

[الأعراف: ٧٣]

العنادُ يولِّدُ الكُفرَ كما يقولونَ!

ودائمًا ما يُلاقي أنبياءُ اللَّه عنادَ أقوامهم، وتمسُّكَهم بعقائدَ ليس لها صلةٌ بالعَقْل الذي يميزُ بينَ الإنسان والدوابِّ لكنَّ النبيَّ يصبرُ علَيهم، ويُلاقي منهُم العنَتَ والأذَى في سَبيل نَشْر دَعْوَة اللَّه.

وقصَّتُنَا الآنَ واحدةٌ من هَذه القصَص التي تصفُ كيفَ أودَى العنادُ بأصحابه؟ وكيفَ انحدرَ تفكيرُ الإنسان إلى الأدنَى والأضَلِّ.

حدثَتْ قصَّتُنا في قَوم ثَمُودَ.

وثمودُ إحدَى القَبائلِ العَربيةِ البائدةِ.

ومن قَبلها بادَتْ قبيلةُ عَاد. وكثيرًا ما ذُكرت عادٌ وثمودُ في القُرآنِ الكَريمِ، من حَيثُ العِبرةُ والموعظةُ.

وكانتْ ثمودُ بينَ الحجَاز والشَّامِ، وأما عادٌ فكانت تسكنُ بالأحقافِ في أرض اليمن.

لكنَّ ثمودَ اختلفتْ عن عَاد.

كانتْ قبيلةُ عَاد تُفسدُ في الأرضْ، وتَطغَى كَثيرًا، وتكفُرُ باللَّه تعالىَ،

وتتكبَّرُ على عبَاده، فأذاقَها اللهُ عقابَه الشَّديدَ.

قال تعالى عنها: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

فلمَّا خلفَتْها ثمودُ حاولتْ أن تَعيَ الدرسَ، فعمَرت الأرضَ، واتَّخذَت الجبالَ بيوتًا، نَحتُوها فيها، واشتُهِروا بالثَّراء والرَّخاء.

ولقد امتحنَهم اللهُ كثيرًا، فزادَ من خَيْراتهم وأموَالهم وأيَّام رخَائهم.

لكنَّهم بالرَّغْم من هذه النِّعَم الإلَهية لَم يشكُرُوا اللهَ علَى ما أعطاهُم من العزَّة والغِنَى والقُوَّة والسُّلطان.

فلَمْ يَمض وقتٌ طَويلٌ حتَّى جَحدُوا النِّعْمةَ، وأفسدُوا وتجبَّرُوا في الأرضِ، واستجابُوا للشَّيطان كمَا فعلتْ عادٌ من قَبلُ.

ويشاءُ اللهُ أن يرسلَ إلَيهم رجلاً منهُم، أخَاهُم صالحًا. أمَّا صالحٌ فينتسبُ إلى نوح عليهما السلامُ.

وقد وُلدَ صالحٌ بالقُرب من وادَي القُرى بالحجَاز.

وكانَ إنسانًا عاديًا، مَعروفًا بالطِّيبة والسماحَة، ثم أَوحَى اللهُ إليه أن ادْعُ قومَكَ إلى عبَادة اللَّه. قالَ:

﴿... قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ...﴾ [هود: ٦١].

أرادَ بقَوْله هذا أنْ يُعرِّفَ قَومَه الحقيقةَ، وأنْ يذكِّرَهم بما كانَتْ عليه عَادٌ من قبلُ، وأنَّ اللهَ تعالىَ هُو الذي هيَّأ لَهُم القوَّةَ والثَّراءَ وتعميرَ الأرْض.

ويسخَرُ منه القومُ.

مَن هذَا الذي يدعُونا إلى أنْ نغيِّرَ عَقيدتَنا وعَقيدةَ آبائنا وأجدَادنا؟! ولماذَا هذَا الرجلُ الفقيرُ الذي لا مَأوَى لَه؟!

وإذا كانَ إلَهُه هذَا حقيقةً فليختَرْ منَّا مَن هُوَ أكثرُ مالاً وجَاهًا؛ لكيْ يكونَ أقْوَى تَأثيرًا في النَّاس.

هكَذَا كانَت استجابةُ قَومه، رفضًا وسخريةً وعناداً. ولَم يَستجبْ لصالحٍ إلا نفرٌ قليلٌ مُستضعَفونَ.

لكنَّ صالحًا كانَ أكثرَ إيمانًا وقُوةً، بَل أخَذَ يُلحُّ علَيهم باللِّينِ والإقنَاع

تارةً، وبالتَّخويفِ والتَّحذيرِ تارةً أخرَى.

وكانَ يـذكِّرُهم دائمًـا بروَابط القُربَى والنَّسَب، وأنَّه لا يدعُـوهم إلا إلى الخَيْـر والسَّلامِ، ولا يُضـمِرُ لَهُم سُـوءًا، ولا يُريدُ لَهم شرّا، وطَلبَ إلَـيهم أنْ يشكُروا اللهَ على عَطَاياه، وأن يَستغـفرُوه ويَتـوبُوا إلَيه علَى ما ارتَـكبُوه من ذُنوب ومَعاصٍ وأخطَاء؛ فهوَ التوَّابُ الرحيمُ.

وكمَـا يُلاقي الأنبيـاءُ من أقْوَامـهم لاقَى صالحٌ الأَذَى من قَـومه، ولاقَى صَمَمَ الآذَان، وإغْلاقَ القُلوب، وجَفافَ الأرْوَاح والنُّفوسِ.

بَل أنكَرُوا علَيه نبوَّتَه لفَقْره ودُنُوِّ مَنزلَته وَسطَ النَّاسِ.

قالَ أحَـدُهم: يا صَالحُ، صحيحٌ أنَّكَ رجـلٌ طيبُ القَلب، رَاجحُ العَقل، صائبُ الرَّأي، لكنَّـك فيمـا تدعُو إليه قَـد حادَ تفكيـرُك عَن الصَّوابِ والحَقِّ والرَّشادِ.

وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

ويُصرُّ قـومُه على عنَادهم، وطُغْيَانهـم، بلْ تمسَّكُوا أكثرَ بعبـادَة أصنامِهم

التي لا تنفعُ ولا تضرُّ، وأخذُوا يواجهُونَه في قَسوة:

عُدْ إلى عَقلكَ يا صَالحُ، فنحنُ نعبدُ ما عبدَ آباؤنا وأجْدَادُنا، ونظنُّكَ قد عبثَ بعَقْلك الشَّيطانُ؛ لعلَّكَ تصلُ بدَعْوَتك هَذه إلى الجَاه والشَّرَف. وإذا كانَت النبوَّةُ تهيِّئُ لكَ ذلكَ فمنَّا مَن هُو أَوْلَى بها منكَ. ولو أنَّنَا اتَّبعناكَ في عقيدتكَ لانْحَرَفْنَا عن الحقِّ والصَّواب.

قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا . . .﴾ [الشعراء: ١٥٣، ١٥٤].

وقال أيضاً: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٣ - ٢٦].

وتمادَى القومُ في طُغيانهم، في مُحاوَلة لصَدِّه عَن دينه، وصَرْفه عن دَعْوته، لكنَّه لَم يَسأمْ، ولَمْ يستمعْ لغوايَتهم، بَلْ واجَهَهُم بقَوله:

- إنْ كُنتُ أنَا علَى بيِّنة من ربِّي، وآتَاني منهُ رَحمةً واسعةً، ثُمَّ أعرضتُ عَن هذا كُلِّه واتَّبعتُ طريقَكم، وعصيتُ ربِّي فمَن تُرَاهُ يمنَعُني من وقوعِ

عَذابِه؟! ومَن تُراهُ يعصمُني من شدَّة عقابِه؟! اتَّقُوا اللهَ يا قومِ.

ويتمسَّكُ صالحٌ بدَعْوَته، وبدأ بعضُ القَوم يصدِّقُونَه، ويُؤمنونَ بما جاءَ بِه.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣].

لكنَّ المتكبِّرينَ خَشَوْا من تَزايُد أتباعه، وكَبُرَ علَيهم أن ينتصرَ صالحٌ علَيهم بدينه ودَعوَته، وهُم القومُ الأثرياءُ ذَوُو النُّفوذ والسُّلطان، فأخذُوا يعذِّبونَ أتباعَه، وينكّلونَ بهم، ويَسخرونَ منهم، لكنَّهم كانُوا يزدادونَ تمسُّكًا بصالحٍ ودَعْوته.

قال تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧].

وفي يَوم ذهبَ القومُ ـ وعلَى رأسهم كبيرُهُم ـ إلى صَالحٍ حيثُ كانَ يَعظُ أتباعَه، وارتجفَ الجَميعُ. لكنَّ صَالحًا لَم يَرتجفْ! بَلْ قامَ من مَكانه يُواجهُه. قالَ:

- ماذَا تريدُ يا كبيرَ القَوْم؟

قالَ كبيرُ القَوْم: يا صالحُ، إذا كنتَ لا تزالُ متمسِّكًا بدَعْوَتكَ فأرِنَا آيةً ندركُ بهَا صدقَ ما تدعُو إليه.

قالَ صالحٌ: ماذَا تقصدُ؟

قالَ كبيرُهم: نريدُ أنْ نشهدَ معجزةً ظاهرةً تصدقُ رسالتَكَ.

قالَ صالحٌ: لكُم مَا تُريدونَ. لكنْ أيّ مُعجزة تُرْضيكم؟

قالَ كَبيرُهم: إنَّ لنَا عيدًا نَخرجُ إليه بأصْنَامنا في يَوم مَعلومٍ من السَّنة، ونريدكُ أنْ تَخرجَ معَنا في هَذا اليَوم إلى الساحَةِ الكبيرَة.

قالَ صَالحٌ: ولماذَا أخرجُ معَكُم وأنَا لَستُ عَلَى دِينكُمْ، وأنكِرُ عقيدتَكم؟!

قالَ كبيرُهم: هذَا ما نقصدُه تمامًا. نحنُ نَدعُو آلهتَنا، وتَدعُو أنتَ إلهَكَ الذي تدعُو إلَيه، فإنْ استجابَ لكَ إلهُك اتَّبَعْنَاك، وإنْ استُجيبَ لنَا تركتَ ما تَدعُو إليه واتبعْتَ ديننَا. ولَم يتردَّدْ صالحٌ، بَل وافقَ على الفَور؛ فهوَ يعلمُ أنَّه علَى حقٍّ، وأنَّ اللهَ سوفَ يكونُ إلى جَانبه، ولَن يتخلَّى عَنه أبدًا. فأخذَ يدعُو

ربَّه أن ينصرَه علَى ثمودَ.

وفي اليَوم المَعْلُومِ خـرجَتْ ثمودُ بأوثَانها في عِيـدِها، وذهبَ صالحٌ إلى السَّاحَةِ.

ثُم دعَا سيـدُ ثمودَ أصنامَهم، فقـالَ: يا آلهةَ ثمودَ، نسألُكِ ألا يُسـتجابَ لصالحٍ في شَيء مما يَدعُو إلَيه!

وردَّدَ القومُ دُعاءَه من وَرائه.

ثُم أشارَ إليهم بالصَّمتِ، ووجَّهَ حديثَه إلى صَالحٍ قائلاً:

والآنَ يا صالحُ، لقَد دعونَا آلهتَنا أن تَحُولَ دُونَ ما تَدعُو إلَيه، فادْعُ إلهَك أن يَستجيبَ لما نَطلبُ.

قالَ صالحٌ: ومَا طلبُكُم؟

قالَ سيدُ ثـمودَ: أمامَك هَذه الهضبةُ ـ وهيَ صـخرةٌ صَلْدةٌ ـ فاطلُبْ من إلَهكَ أن يُخرجَ من هَذه الصَّخرة ناقةً عَشْراءَ ولَودًا.

تعجَّبَ صالحٌ من طلَبْ سيِّد ثمـودَ، وقالَ: وهلْ علمتُم أنَّ النُّوقَ تَخرجُ من الصُّخورِ؟! ماذَا جرَى لعقُولِكم؟!

قالَ سيدُ ثمودَ: نحنُ قومٌ رُعاةُ إبل، ونعرفُ من أينَ تَأتي النُّوقُ، لكنَّكَ تزعُمُ أن إلَهَك يخلُقُ كلَّ شَيء من العَدمِ. فهَلْ يعجزُ إلهُك يا صالحُ عن إخراجِ ناقَة من صَخرةٍ صمَّاءَ؟! أظنُّه إذَا كانَ إلهًا حقّا فلَن يَعجزَ.

ووجدَها صالحٌ فُرصةً، فقالَ لَهُم:

- وإذا استجابَ اللهُ لَمَا تَطلُبونَ تصدِّقُونَني؟

قالَ سيدُ القَوم في تَصميم: نَعَمْ، نصدِّقُكَ.

قالَ صالحٌ: إنَّني علَى يَقين أنَّ اللهَ لَن يخذُلَني، وأنَّه سيستجيبُ لِي. لكنِّي أحذِّرُكُم من شَيء..

قالَ سيدُ القَوم: ما الذي تحذِّرُنا منه؟!

قالَ صالحٌ: لو حدثَ هَذا ولَم تُؤمنُوا فسوفَ تنالونَ عقابًا شديدًا بجُحودكم وغُروركم وعنادكُم.

ولَمْ يملكْ سيدُ ثمودَ إلا أنْ يَعدَ صالحًا أنَّه وقَومَه على وَعْدِهم لَه، ثمَّ أشارَ إلى النَّاس جميعًا، فرفَعُوا أيديَهم علامةً على الموافقة.

ويقتربُ صالحٌ إلى الهضبَة الصَمَّاء، والقَومُ من وَرائه ينتظرونَ حُدوثَ

المعجزَة.. وأخذَ صالحٌ يدعُو اللهَ أن يحقِّقَ هَذه الآيةَ الخارقةَ.

وما هيَ إلا لحظاتٌ حتَّى تفجَّرَت الصخرةُ الصمَّاءُ شَظايَا، وتراجعَ القومُ خشيةَ أنْ يصيبَهم شيءٌ منها، ثُم نظرُوا، فإذَا بناقَةٍ عَشْراءَ وَلُودٍ تَخرجُ من الصَّخرة، وتستَقرُّ أمامَهم!

وسادَ بينَهم صَمتٌ رهيبٌ، ودَهشةٌ مذهلةٌ، ثُم طَأطَأَ الجَميعُ رؤوسهم من شدة المفاجَأة، فآمنَ كثيرٌ منهم ولكنَّ أكثرَهم استمرُّوا على الكفرِ والعناد.

ثمَّ قالَ صالحٌ:

يا قومِ، إنَّ اللهَ أهلَكَ عاداً من قَبلكم لطُغيَانهم وفَسَادهم وعنَادهم. وأنتُم الآنَ مَوعُودونَ بالعَذابِ الشَّديدِ إذَا فكَّرَ أحدُكُم أنْ ينالَ من هَذه النَّاقَة أو يُسيءَ إلَيها؛ لأنَّها ناقةُ اللَّه.

قال تعالى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥، ١٥٦].

ويَرتعشُ الجميعُ، ويَعِدُ كَبيرُهم أنَّهم لَن يمسُّوهَا بسُوءٍ.

ومَرَّ يومٌ والنَّاسُ في ذُهولٍ ممَّا حَدثَ.

ومرَّ يومٌ آخرُ والناسُ في حَيْرَة.

وفي اليَوم الثَّالثِ وضعَتِ الناقةُ ولدَها، وأخذَ اللَّبنُ يتدفَّقُ بغزَارةٍ منها.

ويُسرعُ القومُ إلى صَالحٍ يسألونَه: ماذَا نفعلُ معَ الناقةَ ولَبنها الغَزير؟

قالَ صالحٌ: يا قومِ، إنَّها ناقةُ اللهِ، وهيَ ليستْ كالنُّوق التي تَرْعَى في أرضِكم.

قالُوا: إذنْ قُلْ لَنا ماذَا نفعلُ بهَا؟

قالَ صالحٌ: اتركُوها تأكُلْ في أرضِ اللهِ من العُشْبِ.

وليسَ على أحَدٍ إطعامُها ورعايَتُها؛ فاللهُ رَاعيها وحافظُها.

قالُوا: نُريدُ أنْ نشربَ لبنَها، ونستفيدَ منها، فقُلْ لنَا كيفَ ومتَى؟

قالَ: يا قومِ، لقَد شاءَ اللهُ لناقَتِه أن يكونَ لها يومٌ تشربُ فيه وحدَها، ولكمْ يومٌ تشربونَ فيه دونَها.

ومعَ أنَّ القومَ تعجَّبُوا من هذه القسْمة لكنَّهم لا يملكونَ إلا الطاعةَ،

وفِعْلَ مَا طلبَه صالحٌ منهم؛ خشيةَ عَذاب الله.

وكانَ الأمـرُ يَدعُو للعَـجَب؛ فلَمْ يَرَ النَّاسُ من قَبلُ ناقـةً تَرِدُ الماءَ وَحدَها يومًا، ولا تشربُ في اليَوم الثَّاني؛ لأنَّها تترُكُه لَهُم!

إنهُم قَومٌ رُعاةُ إبلٍ. إذنْ هيَ معجزةٌ حقّا!

لقد وضَعهُم صالحٌ في اختبار شَديد ليعرفَ فيهم قوةَ إيَمانهم باللَّه. كمَا كانَ دائمَ التَّحذير لهم إذا مسُّوها بسُوء.

وتظلُّ الناقـةُ زمنًا تأكلُ في أرْضِ الله. وتظلُّ تردُ المـاءَ يومًا، وتَصُـدُّ عنهُ يومًا آخرَ. فإذا كانَ يومُ شُرْبها وضعتْ رأسَهـا في البئْر فيرتفعُ الماءُ إليها، فلا ترفعُ رأسَها عَن البئْر إلا بعدَ أن تشربَ كلَّ ما فيها من مَاء، لا تتركَ منه قطرةً واحدةً. ثُم يَحلبونَ لبنهَا ما شاؤُوا، يملؤون أوانيَهم منه. فإذَا جاءَ اليَومُ التَّالي شربَ الناسُ من البِـئر حتَّى يَرْوَوْا، ويدَّخرُوا مـا شاؤوا، فكانَ يومٌ لبنًا، ويومٌ ماءً وفيرًا.

ولاحظَ القـومُ أنَّ الناقـةَ لضَـخـامةِ جسـمِـهَـا تُرهِبُ إبلَهم وأغنامَـهم ومواشيَهم.

إنَّها تقفُ إلى جَانب الرَّبوة، أو تَرْعَى في أرْضِ اللهِ، فتَهربُ كُلُّ الإبلِ والأغنَام والمواشي.

فكَرهَ القومُ ذلكَ، وضاقُوا بها، وبيَّتُوا لها شَرّا.

لكنَّ العُقلاءَ من القَوم كَانُوا يردُّونَهم عن شَرِّهم؛ خشيةَ ما وعدَ به صالحٌ من وُقوع عذابِ اللهِ، الذي سيحلُّ بهم إذَا هُمْ مسُّوها بسُوء.

ويظلُّ القومُ بينَ نَوازعِ الشرِّ والرَّهْبَة، لا يجرؤُ أحدٌ منهُم على الاقترَاب منها بالأذَى، لكنَّهُم أخَذُوا يفكِّرونَ في الاحتيَال للتخلُّصِ منهَا دُونَ أنْ يحاسَبُوا. لكنْ كيفَ؟

لقدْ وسوسَ لهُم الشيطانُ كعادَته؛ فهو لا يمكنُه الصَّمتُ، أو التسليمُ بالهزيمةِ.

إنَّهم يعرفونَ جيدًا أنَّه لا يوجَدُ رَجلٌ في القَوم يَستطيعُ أن يُقدمَ على قَتل الناقَةِ من تِلقَاء نَفسه. وهُنا أغْرَاهُم الشَّيطانُ، ووجدَها فُرصةً للإيقَاعِ بهم.

لجأَ كُبراؤهُم إلى النِّساء لكَي يقدِّمْنَ للرِّجال إغراءً بقَتلِ النَّاقة.

وتَشهدُ الأحداثُ إغْراءَات كثيرةً من نسوَة كثيرَات إلى رجَالٍ كثيرينَ!

فهاهيَ صَدُوق بنتُ المحيَّا ـ وهي امرأةٌ ذاتُ حسَب ومَال من ثمودَ ـ تَعرضُ نفسَها على مصرع بن مهرّج إنْ هوَ عقَرَ الناقةَ وخلَّصَ القَومَ منها.

وهاهي عنيزةُ العَجوزُ التي بلغَتْ من الكبَر عتيّا تدعُو قُدارَ بنَ سَالف إلَيها، وتَعرضُ عَليه إحْدَى بناتها، ولا تَطلبُ منهُ مَهراً ولا أجْرًا إلا عَقرَ النَّاقة التي أصبحَتْ معجزةً تستميلُ الناسَ وتُحدثُ فتنةً، وتُبعِدُهم عن عبَادةِ الأوثَان، إلى جَانب ما تُسبِّبُه من الرَّهبَة والخَوف.

ويَستجيبُ الرَّجُلان إلى الغوايَة، بل يَسعَيان لدَى بَعض ضِعَاف النُّفوسِ لعلَّهُما يفوزَان بآخَرينَ ينضمُّونَ إليهمَا فيما ينويانِ علَيه.

ويَستجيبُ سبعةٌ من الرِّجَال الآخرينَ.

وينطلقُ الرِّجالُ التسعةُ إلى حيثُ تَرعَى الناقةُ.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ [النمل: ٤٨].

خَرجَ الرِّجالُ يرقُبُونها.

إنَّها الآنَ تخرُج إلى البِئْر وتشربُ كعادَتِها، ثُم تتَّجهُ إلى المَرعَى في أرْضِ اللَّه.

وفي أقرَب مسَافة من الرِّجال يَرميها مصرعُ بنُ مهرّج بسَهْم نفذَ إلى عَظم سَاقها، ثُم عاجَلَها قدارُ بنُ سَالف بالسَّيف خلفَ الكَعْبَين قال تعالى: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢]. لقد كان هذا الرجل أشقى إنسان على وجهِ الأرضِ، ثُم أقبلَ الجَميعُ يوسعُونَها ضَربًا ووَخْزًا.

سقطَت النَّاقةُ علَى الأرْضِ، حتَّى لفظَتْ أنفاسَها، فنَحرُوها.

ويعودُ الرِّجالُ إلى النِّسوة يزفُّونَ الخبرَ. وتُزغردُ النِّساءُ، ويَسعدُ الرجالُ.

لقد عُقِرَت الناقةُ التي تقضُّ مَضاجعَ القَوْمِ، وتنفرُ منها أنعامُهم.

ويستقبلُهم القَومُ استقبالَ المنتَصرينَ، فَقد خلَّصُوهُم من هَمٍّ ثَقيلٍ كانَ يلازمُهم لَيلَ نَهارَ، ولا يَجرؤُ أحدٌ علَى التخلُّصِ منه.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

وينطَلقُ أحَدُ المُؤمنينَ إلى صَالح صَائحًا:

يا نبيَّ اللَّه، لقَد عقرُوا الناقةَ.

ويُسرعُ صَالحٌ إلى حَيثُ كانَت الناقَةُ، ويتبَعُه القَومُ، ويَنقسمُونَ على أنفُسهم، فمنهمُ من تنصَّلَ تمامًا من المَسؤوليَّة، ويخبرُه بأنَّه لا ذنبَ لَه فيمَا حدثَ، وإنَّما الذي قامَ بهذَا فَتيَانِ خَارجَان علَى القَبيلة.

ومنهُم مَن أعلنَ خشيَته من انتقَامِ الله، وتَنفيذِ وَعْدِه بالعَذاب.

لكنَّ صالحًا كانَ غاضبًا من هَذه الجريمة، فردَّ علَيهم قائلاً:

- إنَّكُم قَومٌ لا تَرجعون عَمَّا في أنفُسكم.

لقَد حذَّرتُكم مرارًا - إن أصبتُموها بسُوء أَو أذًى - من عقَاب اللَّه، لكنَّكم لَم تُطيعُوا أمرَ الله، فحقَّ عليكُم العذابُ، وهذَا وعدٌ غَيرُ مَكْذوب.

أفاقَ القومُ، وأخذَ بعضُهم يَعتذرُ، وبعضُهم يَبْكي. ثُم ظهرَ أمامَ الجَميعِ في أعلَى الجبَل وَلَدُ النَّاقةِ الصَّغيرُ، وكأنَّهُ يتوعَّدُهم بأسْوَأ المَصير، وهناكَ أشارَ صالحٌ إليه قائلاً:

انظُروا إلَى وَلَد النَّاقة، إنَّه هاربٌ منكُم ومِن طُغيانِكم، فَإن أفلَحتُم وأدركتُموه فعسَى اللهُ أن يَرفعَ عَنكم العذابَ.

وينطلقُ القَومُ، كبيرُهم وصغيرُهم خَلفَ الوَليد، لكنَّه سبقَهُم جميعًا،

وراغَ منهُم وعَادُوا خَائبينَ يتوسَّلونَ ويعتذرونَ ويبكُونَ.

وماذَا ينفَعُ النَّدمُ والبُكاءُ بعدَ أن وقعَتِ الواقعةُ؟!

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧].

التفتَ صالحٌ إليهمْ يتوعَّدُهم:

- إنَّ اللهَ يمنحُكم من فضلِه ثلاثةَ أيَّام تتمتَّعون فيهَا، ثُمَّ يَحِلُّ عليكُم العذابُ.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

ولعلَّ صالحًا كانَ يقصدُ من هَذه المُهْلةِ حَثَّهم علَى تَرْكِ الكَذبِ والنِّفاقِ والفسَادِ والرُّجوعِ إلى اللهِ في ندَمٍ صَادقٍ.

لكنَّهم لَم يَستجيبُوا، بَل ظَلَّ أكثرُهم غيرَ مصدِّق، غارقًا في وَهْمِه وطُغْيانه وكَذبِه.

وجاءَه بعضُ السُّفَهاء، وقالُوا: لماذا تُرجِئُنا ثَلاثةَ أيَّامٍ؟! لَو تَستطيعُ الآنَ عجِّلْ بالعَذاب، وائْتِنَا بما تَعِدُنا من العَذابِ.

قالَ صالحٌ:

- يا قَوْمِ، لِمَ تَستَعجلونَ بالسيِّئة قبلَ الحسَنةِ؟! لَوْلا تستغفرونَ اللهَ من صَلَفكم وكبْريَائِكم؛ لعلَّه يرحمُكم.

سَخرُوا منه وانصرَفُوا عَنه، ولَم يُؤثِّرْ فيهم ما قالَ، بَل ازدادُوا بُهتانًا وغُروراً وضلالاً.

وأقبلَ عَليه كبيرُهُم صائحًا في وَجْهه: لقدْ حلَّتْ علَينا اللعنةُ منذُ ظهرتَ بدَعوتك هذه. لقَد تَطَيَّرْنَا وتشاءَمْنَا بكَ وبمَنْ مَعَك.

ودَبَّروا أمرَهم للتخلُّصِ من صَالح وأتباعِه، كمَا تخلَّصُوا من قَبْلُ من ناقَته.

ويجتمعُ القومُ على الشرِّ يتشاورونَ، كلٌّ يُدلي برأيه في طَريقَة التخلُّصُ من صَالح وأتْبَاعه. اقترحَ أحدُهم أن يباغتَه واحدٌ منهم لَيلاً والناسُ نيَامٌ.

واقترحَ آخرُ أن يعترضُوا طريقَه، ويقتُلُوه في وضَحِ النَّهَارِ.

ويزدادُ النقاشُ والرَّأيُ، حتَّى أنَّ أحدَهم رأى أن يهاجمَ صالحًا لَيلاً هُو وأهلَه، ويقتلُهم جميعًا.

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠، ٥١].

وينتَهي الجَمعُ دونَ اتِّفاق؛ فلَم يصلُوا إلى رأي موحَّد.

ويحلُّ ظَلامُ يَوْمِ الأربعَاءِ الـذي عُقِرَتْ فـيه الناقةُ، فـيعودُ كُلٌّ إلى بَيـته، يَنتظرُ الأيامَ الثلاثةَ.

ويَجيءُ يومُ الخَميس، وكانَ يومًا عَصـيبًا علَى القَوْم؛ نظرَ الناسُ بعضُهم إلى بَعْض فإذَا هُم جميعًا وجوهُهُم مُصْفَرَّةٌ، فأيقَنُوا بالعَذابِ.

وباتُوا يومَهم في دَهشَة وقَلَق.

ثمَّ جاءَ يومُ الجمُعة، فكانَ يومًا أكثرَ شدَّةً علَيهم؛ نظرَ الناسُ بعضُهم إلى بَعْضٍ فإذَا هُم جَميعًا وجوهُهم مُحْمَرَّةٌ، فأيقَنُوا الموتَ.

وباتُوا يومَهم في خَوْفٍ ورُعْبٍ.

ثُم جَاءَ يَومُ السَّبت، فنظرَ الناسُ بعضُهم إلى بَعْض فإذَا وجُوهُهم جَميعًا مُسَوَدَّةٌ، فصَاحُوا جَميعًا: لقَد مضَى الأجلُ، وحانَ العذابُ.

وانطلقَ الناسُ يحفُـرونَ قُبورَهم بأيدِيْهم ويَنزلُونَ فيـها ظَنّا منهُم أنَّ اللهَ يرحَمُهم ويغفرُ لَهم.

فلَمَّا كانَ يومُ الأحَـد أتَتْهُم صَيحةٌ من السَّمـاء، فيهَا صَوتٌ كالصَّـاعقة، فزلزَلَتْ قُلوبَـهم في صُدورِهم، وأصبَـحُوا في ديَارِهم جَـاثمينَ، لا يقدِرُونَ علَى الحرَكة.

وكانَ مَشهدُ النِّهايَة، نهَاية الكَذبِ والفسَادِ والطُّغْيانِ والغُرورِ والعنَاد.

أمَّا صالحٌ وأتباعُه فقَد أمرَهُم اللهُ أن يَخرُجُوا ليلةَ الأحَد في اتِّجاهِ الشَّامِ تاركينَ أرضَ ثَمُودَ للعذَابِ والعقَابِ الإلهيِّ.

وينقذُ اللهُ عبَادَه برحمَتـه وفَضله، وصَوتُ صَالح ـ علَيه السَّلام ـ يُدَوِّي في جَنَبات الجبَال: ﴿... يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وقال تعالى فيهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٦ - ٦٨].

وها هي اليـومَ مـسـاكنُهم المنحـوتةُ في الجـبـالِ تشـهـدُ على طغـيـانِهم وجبروتهِم جاثمةً على الطريقِ بين المدينةِ المنوَّرةِ والشامِ.